صدى الحرية

أسبوعية ثورية اجتماعية

توعوية منوعة

للتواصل وإرسال المشاركات :

Facebook / SadaALhoryeh ** freequd@gmail.com

فريق QMT قدسيا الإعلامي

صدى الحرية | الحلقة 93 | الجمعة 6 | شباط 2015

بصمة غدر

صنعة الإرهاب

الاستبداد والمجتمع

مصارحة جريئة

خيرة الأحداث

إليكَ دموعي

بصمة غدر

شهدت المدينة تحركات وتغييرات ضمن إطار الثورة، وأخرى أتت على خلفيات إجرامية ويأتي توصيف الحدث ببعده الإجرامي منطقياً، يرجع إلى عقليةٍ مريضة، تحولت إلى مسخٍ وابتعدت عن ذاتيتها الإنسانية، بكل خصائصها ونوازعها، بعد حالةٍ من الانغماس في المادة بعيداً عن كل الأخلاق والقيم، وحتى عن الإسلام قولاً وعملاً.

ولأن الضعيف لا يمكن إلا أن يرتبط بضعيف تكشف الجريمة عن حمق الغاية والدافع من ورائها وعن طبيعة الفاسد ومن يقف خلفه، هنا الحديث عن "الجريمة" بكل أشكالها وأبعادها، وليس عن واحدة بعينها.

إذ إن ما يحاك في الليل ينم عن خسة الفاعل وضعفه أمام الضحية، ومن يقوم بانتظار العتمة كي يكمل مشروعه السوداوي يدلل ويكشف عن هويته.

مقاومة التغيير ومواجهته بالفساد من الضروري أن تنشئ الفوضى يأتي هذا ضمن مخطط فوضوي يهدف إلى إعادة تشكيل لوحةٍ قبيحة وإفراز الضرورة لوجود "النظام" ومليشياته من جديد على الأرض، وإعطائه الغطاء للتدخل، بالتالي نحن أمام ارتباط الفساد بمشروع النظام الأسدي برغبة من أعانه أو دون علمه، وإن كان الشك في النوايا من الفاسد أقرب للمنطق. بالتالي نحن نواجه الثورة والثورة المضادة.

لن أطيل النفس في الحديث بل نتطرق لجانبٍ من هذا الحدث الجلل، مؤكدين أننا لسنا جهة ادعاء، ولن نأخذ دور المحكمة في توجيه أصابع الاتهام ونرمي بها هنا وهناك، هدفنا ربط الأحداث ورصد الوقائع، في محاولةٍ لتفنيد كل إشاعةٍ تخفي ورائها هدف زعزعة الأمن والاستقرار.

هذا يستلزم التفكير الجاد بمستقبل مدينةٍ ذاقت وذاق أهلها ويلات الاحتلال الطائفي طيلة عقود طويلة، من سلبٍ للخيرات، والأرض واستملاك ما ليس من حقهم، مع ما لاحظناه من عدم صون حقوق "الجيرة"، إن صدقنا بحق جوارهم.

ما لم يزل ماثلاً في عقول الكثيرين أن التغيير انتهى والفساد الظاهر أقوى، وهنا تكمن القوة، في تحويل ضعفنا إلى طاقة تواجه على صعيدين، تقارع عقوداً من هدر الكرامة وسحقها على يد آل الأسد وأذنابهم، وفي ذات الوقت تهدم الرواسب الفكرية البالية والعقيمة، وتحارب الممارسات السلبية لاستعادة مكانة "الدولة الحقيقية" في قلوب أبنائها.

الثورة اليوم مشروعٌ أعمق مما كنا نتصور، هو معول الهدم والبناء في آنٍ واحد، والصادق من يعمل لينال في نهاية المطاف "مكاسب المشروع"، دون التفاتٍ إلى الوراء.

قد يبدو الكلام تنظيراً بعد غياب، لكننا نأمل بعودة الحراك قوياً كما بدأناه، وندعو لإعادة التفكير في أسلوب حياة مدينتنا على الأقل، وربطه بعموم الأرض السورية، مبتعدين ومبعدين كل يدٍ تحاول العبث والتشويه، وإلا كنا أمام سنة الاستبدال التي قال عنها ربنا تبارك وتعالى: ﴿ **وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم** ﴾.

تلك نتيجة مقاومة التغيير، فأين نحن منها، وماذا صنعنا حتى لا ندخل في هذا الوصف الخطير؟

غالب اليقين أن الثورة تنتكس لكنها لا تموت، بل تولد من عمق الرماد، لتتحدى من يقاومها، إذ هي اليوم تحمل همّ إحياء أمة، أكثر من كونها ترفع شعارات الحرية السياسية، والأمر لم يعد خافياً، بل هو حقيقةٌ ماثلة.

نؤيد أي تحركٍ يهدف إلى إرجاع الثورة لحاضنتها الشعبية، في إطار الحق والعدالة للجميع، بعيداً عن المحسوبيات، وفي إطار محاربة الفساد بكل أشكاله وارتباطاته، الذي سأمنا تواجده بيننا.

في هذا الوقت كانت تشهد مدن الغوطة الشرقية حملةً أخرى في إطار الحرب على الفساد، عقبها تحركٌ عسكري أعلنه "علوش" قائد "جيش الإسلام أعلن فيه دمشق منطقة عسكرية بالكامل، وبين معارضة لما حدث وتأييد يبدو أن "علوش" استطاع فرض شبه حظرٍ للتجول في العاصمة، مسبباً عملية شلل قوية في عقر دار النظام.

"يراودني الأمل بأننا نقاتل لكي نبتكر نظاماً جديداً، لا لنحافظ على نظام نعرف جميعا أنه تداعى وانهار". سعد الله ونوس.

الاستبداد والمجتمع

إن معنى الاستبداد السياسيِّ في كلِّ الدراسات السياسيَّة يرتبط مباشرة بالدولة، والدولة المستبدَّة هي دولة ظالمة شموليَّة يحكمها فرد حكماً مطلقاً، أو تسيطر عليها عائلة، أو تسوسُها جماعة سياسيَّة ذات مصالح نفعيَّة مشتركة تقوم على طبقة صغيرة من المجتمع فاسدةٍ تكون اجتماعيَّةً خادمةً لها، وتستخدم السلطة المستبدَّة أدوات العنف لتسيطر على ما بقي من المجتمع الذي لا تشاركه في المصالح، وهنا يصبح اسم البقيَّة من أفراد المجتمع دهماء ورعاء وعامة الناس وغير ذلك من ألفاظ الإقصاء والتهميش والازدراء، وإذا سألنا عن الأسباب التي تؤدي إلى ظهور الدولة الظالمة، أو تؤدي إلى بروز الاستبداد في دولة ما، فإننا نحصر ذلك في جملة أمور منها ما هو تاريخي، ومنها ما هو جغرافي، ومنها ما هو اجتماعي، ومنها ما هو اقتصادي، فمن الأسباب التَّاريخية أن يتوارث الأجيال في المجتمع مبدأ العبوديَّة والرضوخ للطبقة المستبدَّة، وإيهام النفس أن الخلاص من السلطة السياسيَّة المستبدَّة أمرٌ مستحيلٌ بدعوى أنَّها سلطةٌ قد مدَّت جذورها السرطانيَّة العميقة في نسيج المجتمع عبر سنوات طويلة بحيث لا خلاص منها، وهذا الوهم يجذِّر قناعةَ العَجْزِ لدى أبناء المجتمع وحبَّ العبودية والاعتياد على سوط الجلَّاد، ومنها أسباب جغرافيَّة تتعلَّق بالمحيط الجغرافي الذي لا ينمّي في النّفس الإنسانيَّة نوازعَ الحريَّة والكرامة لاعتباراتِ المصالحِ الجغرافيَّة المشتركة بين طبقة من المستبدِّين المتجاورِينَ، وهذا هو الانتفاع السياسيُّ باستشراء الاستبداد، ومنها الأسبابُ الاجتماعيَّة التي ترجع إلى تفكُّك بينة المجتمع ويكون ذلك بفعلِ الأنظمةِ المستبدَّةِ التي تسعى إلى زرعِ الشَّكِّ في أفراد المجتمع بحيث يظنُّ كلُّ مواطنٍ أنَّ له من يراقبه من جيرانه أو أصدقائه أو يتجسَّس عليه لمصلحة الدولة، إضافةً إلى زرع الخلافات بين أفراد المجتمع من خلال عدمِ الفصلِ السَّريع على نحوٍ عادلٍ في قضايا الخلاف الناشئة فيما بينهم حولَ الإرثِ أو المصالحِ التجاريَّة أو الخلافات الزوجيَّة أو خلافات العمل أو غيرها بحيث يكون الالتجاء للقضاء طويلاً وغيرَ عادلٍ وسبباً في إشغال النَّاس بعضهم ببعض لكي تنتشر على ألسنة الناس القناعةُ أن الشعب يستحقُّ ما يجري له من السلطة المستبدَّة، وهنا لا يُدركُ القائلُ لهذا الكلام أنَّ الدولة هي التي أسهمَتْ في استدامةِ هذه الخلافاتِ وتطوُّرها وعدمِ الفَصْلِ القضائيِّ فيها على نحو من السرعة لكي تزرع الكراهية بين الناس، وتصبح القاعدة السائدة أن المجتمع هو من يظلم بعضَه بعضاً، في حين أنَّ الدولة المستبدَّة هي من يرسِّخُ هذا الظُّلم لتبقى الدولة المستبدَّة هي السائدة وينشغل الناس عن كشف عورة النظام المستبدِّ بأنْ يتَّهم كلُّ واحد منهم الآخر بأنَّه ظالمٌ أو هاضمٌ للحقوق، ويبقى الفرعون الأكبر سالماً غانماً يقتطف من بعيد ثمرةَ الخلافِ بين أفراد المجتمع، ولإنقاذِ المجتمع من هذا الاستبداد السياسي يجب أن نَعْرِفَ أنَّ كلَّ ما في المجتمع من بلايا منفِّرة سببُها ليس المجتمع نفسُه بل ما زَرَعَهُ النظام السياسيُّ فيها خلال عقودٍ طويلةٍ، وحين نعلم هذا السَّببَ يبدأ بعلاج الأمراض الاجتماعيَّة وتوجيه السهام نحو النظام على أنه هو المسؤول الأول والأخير عن كلِّ خلل في البنية الاجتماعية والبنية الاقتصادية والبنية التعليمية والمؤسسة الدينية، وبأن النظام هو مَنْ أسهم في إقصاء الشرفاء عن ممارسة دورهم في نهضة المجتمع وتقديم اللصوص لقيادة المؤسسات كلها في الدولة، حتَّى انقلبت الدَّولةُ كلها إلى مؤسسة مُنْتِجَة للاستبداد والفساد والطغيان، وبذلك يظهر الاستبداد السياسي في هيئة تصرُّفٍ غيرِ مقيَّدٍ وتَحَكُّميّ في شؤون الجماعة السياسيَّة، يُبْرِزُ إرادةَ الحاكم وهواه، غيرَ مبالٍ بقواعد العدل والإنصاف، مُسْهِماً في تعميق الشرخ بين أفراد المجتمع على نحو يضمن له البقاء والاستمرار بوصف السلطة المستبدَّة نوعاً من الطفيليَّات القذرة التي تقتات من خلافاتنا وتنافراتنا، من خلال محاولتها تنحية شرع الله واستبعاد العدالة السريعة والمنصفة للحقوق في أثناء نشوب الخلافات، واحتكار السلطة، واستخدام القوة والعنف، وترسيخ حكم الأقلية، وتقديم مصلحة الشركاء النفعية على حساب مصلحة الناس، وبذلك يجب أن نعلمَ أن العاملَ المهمَّ لبقاء المستبدِّ هو مزيد من الخلافات الاجتماعية بيننا، وأن الخلاص منه هو بوحدة صفِّنا، وبإلقاء اللوم عليه على أنه هو المسؤول الأول والأخير عن كل هذا البلاء في المجتمع.

خبرة الأحداث في الداخل علمتني شيئاً هاماً في السياسة

شام صافي

منذ أن بدأ النظام برفع وتيرة القصف عما كان سائداً في أيام خلت من أواخر عام 2014 وتحديداً في الشهر الأخير منه .. وحيث أنني أتابع ما يجري على الساحة الخارجية من سياسة أدركت أن شيئاً ما يتم تحضيره كمؤتمر يعقد أو بادرة تحت رعاية خارجية .. لكني لم أدرك كنهها بالضبط إلا من خلال بضع كلمات هنا وهناك يتكلمها سياسيون،، لكن ما يهم ذكره أنني تأكدت بأنها قضية تهم النظام لأن النظام –وحسبما اعتدنا عليه– لا تسيره الأحداث الداخلية بقدر الأحداث الخارجية فعندما يكون هناك أمر جدي لمصالحة أو توافقية أو مؤتمر يبدأ باستعراض عضلاته بقدر ما يهمه موقعه من هذا المؤتمر أو البادرة أو اللقاء ويبدأ بعمل تمثيليات بل عدة تمثيليات .. وأذكر أنني قرأت على الأخبار أن النظام أرسل شخصية من كيانه ولكنها لم تعد تستطيع الرجوع!! حتى نصدق أنها أصبحت معارضاً في حين أنها حتماً من تشكيلته بحيث يحظى على كمية كبيرة من المعارضين من صفه إضافة إلى عناصر النظام نفسه .. هذه أحد التمثيليات، وتمثيلية أخرى قام بها وهي شن هجوم وقتال عنيف قبيل آخر السنة بيوم على حي جوبر الذي يعد المقاوم الأول له بعد أن كانت جبهة داريا هي التي تتصدر الصدارة .. ذلك القصف الفجائي بهذا الحجم الكبير لا يدل على قوة أحد الطرفين بل يدل على توقيت النظام بهذا الهجوم وبتضحيته بعناصره وأهل البلد وسكان سورية من الجيش الحر حتى يبقى على كرسيه ويقدمهم جميعاً كقربان مقابل أن يظهر السفاح السوري الأكبر بصورة متألقة ما .. وهذا ما كان بعد أن ربطت تلك الأحداث حيث تبين أن كل ما حدث لا يعدو لفت نظر يؤكده حملة الرصاص في ساعة احتفال رأس السنة والتي شاعت في كل مكان بالداخل في العاصمة السياسية .. اختيار التوقيت للحملة تلك وحيث أنه سبقها هجوم استثنائي وربطها جميعاً بإشاعة وجود السفاح على أرض جوبر لا يعكس إلا شيئاً واحداً ويؤكده وهو تثبيت وإعادة هذا السفاح للصدارة لإثبات إعلامي أنه قوة .. أنه موجود وأن له مكانه بعد موات سياسي للقضية وبرودة .. ويدل أيضاً أنه غير آبه بأي من أهل البلد وأن ما يسير النظام لأي حركة أو هجوم هو ليس متطلبات أرض المعركة أبداً أبداً إنما متطلبات السياسة الخارجية وهي التي تهم خططه ووجهه خاصة إن كانت تتبناه إحدى الدول الكبرى ..

إن مساعدة النظام في أسلوبه ذاك بأن نصدق وجود السفاح على أرض المعركة لأجل نقاش هذه الحيثية فقط لهو مساعدة له بأن نعمم هذه القضية الإعلامية وهو يستثمرنا بذلك حتى نقضي حوائجه بغض النظر عن صحة أو كذب ذلك الادعاء فإنه من حيث الصورة الأشمل لا يهم مطلقاً ويجب علينا بعد تلك الخبرة مع النظام أن نكون قد أدركنا هذا .. وأن ندرك أننا غير مهمين له كلنا جيشاً سورياً وجيشاً حراً وسكاناً ومدنيين وأطفالاً وحتى من هم من طائفته .. والشيء الثالث أنه يحاول جاهداً أن يقدم تشكيلته الخاصة على أنها معارضة لتتصدر أي تفاهمات حتى يعود لتشكيل نفسه من جديد.. ما يهمه هو الكرسي فقط وإفشال أي محاولة لتخليصنا منه.

يجب أن نفكر بهذا الاتجاه فقط .. كيف نتخلص منه ولو لم تكن هناك قضية قد تكون المفترج وبادرة أو مؤتمر لما كانت تلك التمثيليات، وحيث أن معاذ الخطيب ومجموعة سوريين قد قدموا بياناً لا غبار عليه وهو في طريق الحل والخلاص من تلك العصابة فعلينا أن نلتم حوله ونعينهم ونسددهم فقد عهدنا عليه الوطنية والصدق والإخلاص .. علينا أن نلتم حول أحد ما ونقوي ثغراته ونملأها بما عندنا حتى ننجو كلنا وإلا فإننا سنجهض حتى هذه المرة منجى خلاص جديد ويرجح أنه حقيقي إن كنا قد أحسنا استخدامه وإدارته السياسية، النظام ضعيف على الأرض ولا يقوم إلا بتمثيليات إعلامية وعلينا إدراك هذا وكسب الجولة السياسية والإعلامية أيضاً وإلا فجميعاً نحن آثمون بحق البلد والسوريين والشهداء والمعتقلين .

صنعة الإرهاب في خدمة الحرب على الإرهاب
هل توقيت العمليات الإرهابية مجرد غباء سياسي ؟

نبيل شبيب

في إطار التمييز بين ثوار مخلصين صادقين عاملين للتحرر من الاستبداد والهيمنة الأجنبية، وبين الإرهاب بمفهومه الشائع عموما، يقال الكثير عن داعش والقاعدة.. من ذلك: صنيعة مخابرات أمريكية وإقليمية، أو مخترقة من جانب المخابرات المعادية حتى النخاع أي من يصنعون القرار الإرهابي، ومنها: القيادات من عالم آخر فلا وعي ولا نظرة واقعية ولا إنسانية ولا أخلاق.

سيان ما يقال.. المهم هو الحصيلة، ومن الثابت الآن أن معظم أنشطة تلك المنظمات، أشبه بخدمات كبيرة لصالح السلطات الغربية، ومن ذلك تقديم الذرائع لحصار الثوار مع تسويق العداء الغربي والخذلان الإقليمي ضد الثورة الشعبية في سورية، عبر امتصاص الغضب "الشعبي" في كثير من البلدان إزاء "همجية" الحرب الأسدية ضد شعب سورية.

يضاف إلى تلك "الخدمات الأساسية" خدمات أخرى أشبه بالهدايا في المناسبات، إذ تأتي دوما في التوقيت المناسب، كما لو أن العملية الإرهابية متفق على موعدها على الأقل.

أخر الأمثلة الصارخة من اللحظة الراهنة تلك الإعلانات المتتابعة عن اختراق منظومات شبكية غربية.. فهي عمليات تأتي في أنسب توقيت لتوظيفها في الغرب من أجل ممارسة مزيد من الضغوط على المدافعين عن الحريات والخصوصيات الفردية، وبالتالي استصدار مزيد من قوانين الرقابة تحت عنوان دواعي الأمن ومكافحة الإرهاب.

ومن السذاجة بمكان القول إن الاختراقات الشبكية استعراض للقوة بمعنى القدرة على تحقيق "انتصارات حاسمة"، فما تم اختراقه شبكيا لا يمثل من قريب أو بعيد خطرا أمنيا ولا عسكريا ولا اقتصاديا، ولا يرقى حتى لمستوى "التجربة" من أجل حرب إلكترونية لاحقة.

لعل القصد هو تشغيل الآلة الدعائية في أوساط من يشعرون -بحق- بوجوب مواجهة صلف الهيمنة الأجنبية وتشابكها مع الاستبداد الإجرامي المحلي.. ولكن ليس هذا هو طريق "الثورة.." التي تحتاج إلى إنجازات ثورية، أي إنجازات كبيرة وحقيقية، تصيب من العدو مقتلا وليس "انتصارات" وهمية أشبه بوخز الإبر، وتحتاج الثورة إلى إنجازات في ساحة المعركة وليس في بعض البقاع النائية عنها في أنحاء الأرض، وإلى إنجازات تجلب التأييد لأصحاب الحق ضد أهل الباطل بدلا من مضاعفة دعم أصحاب الباطل.. ومن قال إن "إثارة الرعب" من أسلحة المعركة، فليعلم أنه الرعب الناتج عن حجم "الثورة" الحقيقي وفاعليتها، ولا يأتي ذلك عبر "التسلل" والضرب من الخلف ومحاولة الهرب لو أمكن الهرب.

لقد أصبح أسلوب "تقديم الهدايا" للعدو عبر توقيت عمليات إرهابية ما، هو الأسلوب المعتمد، وهذا بالذات ما يستدعي التساؤل: من يخطط، ومن يقرر، ومن يحدد "جدول المواعيد"؟..

لم يقتصر تطبيق هذا الأسلوب على عمليات الاختراق الشبكي، فشبيه بذلك مؤخرا إعلان تنظيم القاعدة في اليمن دون ضرورة فعلية عن تبني عملية الهجوم على مقر صحيفة شارلي إيبدو الساخرة الفرنسية، المتعدية بإساءاتها على الإسلام والمسلمين.. فقد جاء الإعلان متزامنا من جهة مع التشكيك على مستويات عديدة أن وراء العملية أجهزة مخابرات غربية، ومن جهة أخرى مع ازدياد الانتقادات والتساؤلات عن التحرك العسكري الأمريكي في اليمن الآن بالذات، إذ يتجنب استهداف الحوثيين رغم عدوانيتهم وارتباطهم بإيران ومشروع هيمنتها الإقليمي، ويتعمد -أي التحرك الأمريكي- استهداف تنظيم القاعدة، بعد أن أصبح القوة الفعلية في مواجهة الحوثيين، مع بعض القبائل اليمنية.

إن الإعلان المذكور أشبه بالهدية للسلطات الأمريكية فكأنه يقول: إليكم ذريعة أخرى لتمرير سياساتكم العدوانية ومواجهة من يعترض عليها من الأمريكيين أو الغربيين عموما.

من أراد فليعد إلى جميع ما سبق من عمليات مشابهة، ولن يجد سوى مزيد من الشواهد المشابهة، ابتداء من أول العمليات وأكبرها، أي تفجيرات نيويورك وواشنطون عام ٢٠٠١م.
آنذاك.. لم يكن باستطاعة بوش الابن بعد استلام الرئاسة الأمريكية بفترة وجيزة، أن ينفذ بعض "الأهداف الكبرى" في وثيقة استراتيجية للمحافظين الجدد، ومن بينها نصّا "الحرب على أفغانستان والعراق"، فجاءت التفجيرات لتتحول المعارضة الشديدة ضد خوض حروب جديدة، إلى تأييد كبير.. بفضل هدية إرهابية دموية ساهمت في تحويل العقد الأول من القرن الميلادي الحادي والعشرين إلى سنوات حرب متواصلة في البلدان الإسلامية، تطبيقا لمقتضيات شعار "الإسلام عدو بديل"، وكان أول من أطلقه رسميا في عام ١٩٩١م ديك تشيني، وزير الدفاع في عهد بوش الأب، ونائب الرئيس في عهد بوش الابن.
لا يوجد أبدا ما يبرئ المعتدين من مسؤوليتهم المباشرة عن ممارسة العدوان.. ولكن يوجد ما يستدعي المطالبة ببعض الذكاء في مواجهتهم، في عالم تحكمه شرعة الغاب على حساب الإنسان في الدرجة الأولى. ولا علاقة لذلك بمسألة "مشروعية" العمليات الإرهابية أو عدم مشروعيتها، ولكن ينبغي على جميع الأحوال السؤال عن أسباب توظيفها في خدمة "العدو".. فهذا ما يضاعف حجم الأضرار المتواصلة منذ أول عملية إرهابية جرت وحتى اليوم، على حساب الإسلام والمسلمين، ولحساب أعداء الإسلام والمسلمين.

مصارحة جريئة بعد قصف دمشق

صباح اليوم الثاني انتقلت إلى المدينة المجاورة، حيث المشفى الميداني الوحيد المتبقي في المنطقة، فالنقطة الطبية في مدينتنا أُغلقت بعد مغادرة الطبيب.
يقع المشفى الميداني في قبو بناء كبير على طرف تلة مرتفعة، وقبل الوصول إليه عليك المرور بتقاطع، حيث يتجاور نهر بردى مع سكة حديد الحجاز القديمة، الواصلة بين دمشق والزبداني، عند التقاطع وقفت أتحدث مع صديق عراقي يعمل حلاقًا، كان ظهرنا إلى الشرق، وكانت القذائف والصواريخ تتساقط. في الطرف الغربي من المدينة يرتفع منحدر صخري، امرأة ستينية كانت تحاول صعوده بمشقة، خطواتها كانت تائهة، متعثرة، وهي ترتقي المنحدر، جلبابها كان مفتوحًا، وحجابها كان ملفوفًا على عجل، كان واضحًا أن الخوف قد سيطر عليها، كانت تحاول الفرار من الموت.
صاح أحد الواقفين بقربنا: ''أين تذهب تلك المجنونة''، فالتلة تقع في مرمى قناصة الحي ''الموالي'' المجاور، وأضاف: ''لا شك أنهم سيقتلونها''، بطبيعة الحال، كانت المرأة بعيدةً عنا، ومن المستحيل أن تسمع الحديث، وحتى لو كانت قريبة وتمكنت من سماعه، فالأغلب أنها لن تستجيب، من المؤكد أنها لم تكن في وعيها، كان الهلع يقودها، لا شيء يمكن أن يدمر وعي المرء وإدراكه كما يفعل الرعب من الموت، في تلك اللحظة نزلت قذيفة ''فوزديكا'' على سطح بناء المشفى الميداني في الاتجاه المعاكس، التفت باتجاهها وتابعت دخان القذيفة، انتابني قلق على أصدقائي في المشفى، لكن لم يطل الأمر؛ إذ صاح الرجل من جديد: ''قُتلت المرأة''، أعدت نظري إلى حيث رأيت العجوز آخر مرة، لكني لم أرها، اختفى أثرها فجأة، أكد الرجل أنه رآها تصاب في الصدر، وتسقط أرضًا.
كان الذهول يطغى على الموقف في ذلك الصباح الخريفي نهاية العام 2012، لم تمنحنا التطورات المتسارعة أية فرصة لتمالك أنفسنا، واستيعاب ما حولنا، كنا بلا طعام وبلا نوم لليوم الثالث على التوالي، وكنا نواجه الموت الأكيد. عند خروجنا بعد انسحاب المقاتلين في اليوم الرابع، أشارت نسوة على الطريق إلى سيارة، كان فيها شاب وصبيتان، قالت النسوة بأن أولئك هم أولاد المرأة التي قُنصت فوق المنحدر، وقلن أيضًا إن اثنين من المقاتلين صعدا ليلًا وأحضرا الجثة، ودفناها بجانب المسجد مع آخرين، دققت بنظري في ركاب السيارة، وتأملت وجوههم، عرفت الشاب، كان متقدمًا عني ثلاثة صفوف في الثانوية، في السيارة لم يكن الحزن باديًا عليه، بقدر ما كانت عيناه تفيض رعبًا، حملتني الأفكار بعيدًا، وأخذت أغرق في أسئلة متلاحقة، ''لماذا يحصل هذا؟''، ''ما هو الذنب الذي ارتكبناه حتى يهاجمنا الموت بهذه الطريقة؟''، ''كيف يكون حال من قُتلت أمه دون أن يحظى بفرصة أخيرة

لوداعها؟''، ''كيف أمضى سكان المناطق الآمنة أيامهم الماضية؟''، ''كيف كان حال الناس في دمشق على بعد عشرة كيلو مترات؟''.

في ذلك الوقت تملكني شعور لم أستطع ردعه، مزيج من الغضب والحقد والكره الذي لم أعرفه من قبل، واستمر بعدها لفترة طويلة، لكنه كان مختفيًا صباح الأحد الماضي، عندما بدأ ''جيش الإسلام'' بقصف دمشق، في العاشرة والنصف صباحًا سقطت أول قذيفة على بعد مائة متر عن مكاني، لم أشعر بشيء، ولم أكن خائفًا، بعد ساعة نزلت الثانية، هذه المرة كانت أقرب، ثم استمرت أخريات بالسقوط، لكن أحاسيسي بقيت على مواتها، حتى إني لم أخرج بأحكام قيمية أو أخلاقية حيال الأمر، رغم قناعتي بأن قصف مناطق مدنية بصورة عشوائية أمر مرفوض، ويشكل جريمة حرب، لكن الآن، وهنا، في هذه الحرب من يبالي؟ أو بالأصح أنا لم أعد أبالي.

أكثر من ذلك لا أخفي أن شعورًا مريحًا تسلل إلى نفسي حين رأيت وجوه الناس يملؤها الهلع، ارتسمت ابتسامة بلا معنى على وجهي، وعلى عكسهم لم أكن أشعر بالخوف أو التهديد، ولم أعتبر أن ذلك القصف يستهدفني، أو يعنيني، مشاعري كانت متحجرة، وموقفي كان محايدًا، خُيّل إلي حينها أنني محصن ضد الصواريخ، وحتى في الشارع حيث كان الناس يركضون، كنت أمشي على مهل، وكأنني أسير على القمر، أو كأنني أحيا في بعد زماني ومكاني مواز.

لنبتعد قليلًا عن السياسة، وعن الأحكام المنطقية، وعن المواقف الأخلاقية المتعلقة بقصف المدن، ولنخرج النقاش مؤقتًا عن تلك السياقات، ولنفكر بالسؤال التالي: لماذا كانت مشاعري تجاه الحياة الإنسانية معطلة أثناء قصف دمشق؟ ولماذا اجتاحتني اللامبالاة والبلادة؟ ولماذا لم أشعر أن الأمر يعنيني؟

أولًا، أعترف أني أمتلك موقفًا سابقًا ''غير ودي'' نحو دمشق، تعزز أثناء الثورة، وأُقر أن عتباتي الحسية والشعورية مرتفعة أصلًا. لكن قد تكون معايشتنا للحرب خلال السنوات الأربع الماضية قد استهلكت مشاعرنا، وأدت إلى تصعيد غرائز العدوان والموت فينا، وربما تكون سرت بين الجميع –وإن أنكروا ذلك– استعدادات أو ميول عنيفة إجرامية، أو حتى سادية أيضًا، شخصيًا لا أجدني مضطرًا لإنكار شهوتي للقتل، ورغبتي فيه، ولا أخفي استعدادي اليومي ''النظري'' للموت، أو ''للتضحية''، ولا أجدني مجبرًا على تجاوز نوبات الغضب، والكراهية التي تجتاحني، وإن كنت أحاول جاهدًا ألا أنقاد لها، وألا أخضع لسيطرتها.

''إن الحب لا يمكن أن يكون أصغر كثيرًا من الشهوة إلى القتل'' يقول ''فرويد''، ويقول أيضًا: ''إن الحب المتأجج والكراهية الشديدة غالبًا ما يوجدان معًا في شخص واحد''، ويضيف: أن ظاهرة ''التناقض الوجداني للإحساس''، ''Ambivalence'' تخدعنا، لأنها تؤدي إلى تمويه الغرائز القاسية والأنانية بصورة نزعات حساسة وغيرية، أو العكس.

يحلل ''فرويد'' علاقتنا بالموت، فيقول: إننا ننكر الموت بالنسبة لأنفسنا... ''ومن ناحية أخرى، فإننا نعترف بالموت بالنسبة للغرباء والأعداء''، ''نحن في اللاشعور نبعد يوميًا وفي كل ساعة كل من يقف في طريقنا، كل من أغضبنا وأضرنا''، ''إن لاشعورنا يمكن أن يقتل حتى لأسباب تافهة.. لأن كل إيذاء لأنانا المعظم والأوتوقراطي هي في أعماقها جريمة ضد الذات الملكية''. ''إن الأحباء من ناحية ملكية داخلية، أحد مكونات أنانا الشخصي، ولكنهم من ناحية أخرى غرباء، بل حتى أعداء إلى حد ما، وباستثناء عدد قليل جدًا من المواقف، فإنه يرتبط بأرق وأوثق عواطفنا أثر من العداء، يمكنه أن يثير رغبة موت لاشعوريةً''، وهذا ما يفسر عند ''فرويد'' شعورنا بالذنب لفقدان شخص عزيز، فاللاشعور تمنى موته في يوم ما.

إذن، ربما نكون قد تمنينا سابقًا وبصورة لاشعورية موت الآخرين، موت سكان المناطق الآمنة، (كسكان دمشق مثلًا)، بسبب انطباعاتنا (التي ربما تكون خاطئة جدًا) عن مواقفهم السياسية أو الأخلاقية، وربما نكون من ناحية أخرى نبحث عن ''التماثلات'' والروابط، والتي تقربهم منا وتجمعهم معنا، وهي في هذا السياق حالة تعرضهم للتهديد، ومواجهتهم للموت كما تعرضنا له قبلهم.صحيح أنه لا شيء جميل في الحرب إلا انتهاؤها، على أنه قد تكون للحرب فائدة تتجلى في إزالة الوهم، وكشف الذات، وتعرية الغرائز البدائية كالقسوة والأنانية والميل للعدوان، والتي نحاول دائمًا إخضاعها لسيطرة العقل، أو إخفاءها خلف جدران الثقافة والحضارة والمدنية.

ربما يساهم الكلام السابق إذا ما أسقطناه على الواقع المجنون الذي نعيشه، وعلى الحرب التي نحياها، والنزاعات النفسية التي تعترينا، والأفكار التي قاتلنا من أجلها، والأحلام تمنيناها، والأوهام التي حملناها، والمواقف التي تبنيناها، في تقديم تفسير لبعض الأسئلة التي تشغلنا، أو الإشكاليات والظواهر الغريبة التي تنتابنا، وإن كنت أعتقد أحيانًا أنه من غير المجدي أن نعرف، أو نفهم، فالجنون، والقتل، والموت مستمر، ولا يبدو أن له نهايات قريبة، أو أنه سيكتب لنا أن ننجو منه.

إليك دموعي .... يا وطني

ل.ن

أكره أن أقف أمام أخطائي، لذا طويلاً هربت من محاسبة نفسي والتفكير فيما فعلته أو يجب أن أفعله، أكره أن أكتب كأنني ألملم شتات نفسي، كمن أضاع شيئاً ثميناً، أكره أن أصارح ذاتي، كمن يقف أمام مرآة، كان لا بد أن أنام باكراً مع بداية كل عام.
أكتب وفي صدري يرقد حب لن يرى النور يوماً، لن نكون زوجين، ولن نكون إلا غريباً وغريبة، رجل وامرأة من طائفتين مختلفتين، وفي حياةٍ أخرى، كنا طائرين، رقدنا على عشب الأرض البكر، وشربنا ماءها كما بشّر الأنبياء، لم أعي يوماً، ما أعيه اليوم، أحبك، أحببتك وأحببتني.
يوم التقينا كان للثورة دمٌ واحد، قلت لي لن يدوم هذا الطريق، وسنسبح في دمنا قريباً، وقلت لك سنمضي لو أصبح للدم لون الليل، ومضينا سوياً وتعمدنا بدمائنا، وكان لنا وجه القمر وغرور الشمس، رجلٌ وامرأة في جسدٍ واحد.
أحببتك .. كما لم أحب يوماً، والتقينا كما لم يخطر ببالنا يوماً، وفي أجمل ما تخيلته وما لم أتخيله، كان عناقنا، كالشجر لا يدري متى نبت غصنه الأول، وأحببتني.
في حاضرٍ كالذي نعيشه، كان لا بد أن نعيش سرّنا بكثيرٍ من اللهفة وقليلٍ من التعقل، فأحببتك وكنت أدري أن لك جناحا عصفور، وأحببتني وكنت تدري أن لي جروح غزال، وكنا معا، رجلاً وامرأة في زمن الثورة.
يوماً كتبت لي (كاد قلبي أن يتمزق، حين اتصلت بك ولم تجيبي)، وبدلال قلت لك (لكنك لا زلت تتنفس)، ومضينا لأكثر من 3 سنوات، كطفلين على مشارف بحيرة، وأحببتك.
وقبل أن ينتهي هذا العام، كان لك طريقٌ آخر، زوجة وأولاد، وكمن يستقبل عصفوراً فقد حنجرته، جاءني هذا الخبر، وبغرور عاشقة، أدري أنك لن تحب يوماً كما أحببتني، لن يكون لك صوتك معي، ولن تتفتح بين ذراعيك ياسمينة شامية، كالتي نبتت بين قلبي وقلبك، ولن تكون كما كنت لي وأحببتني.
أدرك بيقين عاشقة أنك تبحث عن بيتٍ كغيرك من الشرقيين، ومع ذلك تخنقني دموعي وشياطين التفاصيل، هل ستطعمها كما أطعمتني، وهل سيكون لها بيتي، وهل وهل؟؟؟، وأدرك بيقين أنثى أنك كنت وستبقى وطناً لي، وبين ذراعي سيكون وطنك دوماً.
وبين ذلك كله، أدركنا أننا كنا نحترق ولا زلنا، فكيف للحب أن يثرثر وحوله نيران القتلة، كيف لي أن أجهر بحبك في بلد الجوعى، وكيف ستمد لي بزنبقة، في أرض الدمار، لذا كان لاحتراقنا رماد وردة، نبتت على ضفاف بردى، في ربيعٍ مضى.
أكتب لك، وشيءٌ ما داخلي يبكي، إنه الوطن، صار في أحشائي قلباً بوريدين، لك وللسوريين، لآلام المحبين وصرخات الغرقى، وفزع الهاربين وذل النازحين، للبيوت المحروقة والقلوب المحروقة، لكل فتاةٍ أحبت، ولكل شابٍ أحب، ومضيا كأنهما لم يكونا يوماً.